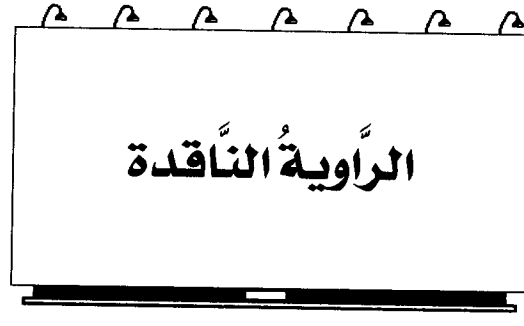
الرَّاويةُ النَّاقدة

الراوية الناقدة

إنَّ راويةً ذكيَّة حافظةً عالمةً بأحكام ما تروي، صادقةً في روايتها، ناهلةً من المنهل النبويّ العذب، لقادرةٌ على معرفة الصواب من الخطأ، وعلى التوجيه الصحيح لبعض الأحاديث التي قد يفهمها بعض الصحابة على غير وجهها، وإنها لقادرةٌ أيضاً على التَّصويب لبعض ما قد يرد على ألسنة بعض الصحابة من الخطأ في تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

وإنَّ صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - لَذاتُ دورٍ كبيرٍ في هذا المجال، جعلها في مقدمة «الرُّواة العلماء الناقدين» الذين منَّ الله عليهم بالفهم الثاقب، والعلم الراسخ، والفقه العميق لكثير من مسائل الدين وأحكام الشرع.

لم تكن عائشة - رضي الله عنها - تجد عناءً في تصويب بعض الأخطاء وتوجيه بعض النصوص، ولم تكن تتردَّد في شيء من ذلك؛ لأن علمها بما تنتقد راسخٌ، ومعرفتها بما تصوِّب عميقة.

١- قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: صَدرْتُ مع عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مكة حتى إذا كنا بالبيداء، إذا هو بركبٍ تحت ظلِّ سَمُرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الرَّكْب؟ قال: فنظرت فإذا صُهيبٌ،

فأخبرته، فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحقْ بأمير المؤمنين، فلما أُصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: واأخاه، واصاحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيبُ، أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ: إن الميِّت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه؟

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٧)

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة - رضي الله عنها، فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ، إنَّ الله ليعذِّب المؤمن ببكاء أهله عليه ولكنَّ رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه.

وقالت حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٨)

٣- أخبرت عَمْرَةُ بنتُ عبدالرحمن أنها سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إنَّما مرَّ رسول الله ﷺ على يهوديةٍ يبكي عليها أهلها فقال: إنهم يبكون عليها، وإنَّها لَتعذَّب في قبرها.

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٩).

٤- قال عروة بن الزبير سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت لها أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فوالله ما

على أحدٍ جُناح أن لا يطَّوَّف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إنَّ هذه لو كانت كما أوَّلْتَها عليه كانت «لا جناح عليه أنْ لا يتطوَّف بهما»، ولكنها أنزلتْ في الأنصار، كانوا قبل أنْ يُسْلموا يُهلّون لِمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها بالمشلَّل، فكان مَنْ أهلَّ يتحرَّج أنْ يطوف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرَّج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أنْ يترك الطواف بينهما، ثم أَخْبَرتُ أبا بكر بن عبدالرحمن فقال: إنَّ هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أنَّ النَّاسَ - إلاَّ من ذكرت عائشة - ممن كان يُهلُّ بَمناة، كانوا يطوفون كلُّهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطَّواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة وأنَّ الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حَرَج أنْ نطَّوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ..** ﴾.

قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرَّجون أنْ يطَّوَّفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطَّوَّفون، ثم تحرَّجوا أنْ يطَّوَّفوا بهما في الإسلام من

أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٦٤٣)

٥- روى عروة بن الزبير أنَّ ناساً طافوا بالبيت بعد صلاة الصبح، ثم قعدوا إلى المذكِّر حتى إذا طلعت الشمس قاموا يصلُّون، فقالت عائشة: قعدوا حتى إذا كانت الساعة التي تكره فيها الصلاة قاموا يصلُّون.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٦٢٨)

٦- ذُكر عند عائشة رضي الله عنها أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما رَفَع إلى النبي ﷺ: إنَّ الميِّت ليعذَّب في قبره ببكاء أهله، فقالت: وَهَلَ، إنما قال رسول الله ﷺ: إنَّه لَيعذَّبُ بخطيئته وذنبه، وإنَّ أهله ليبكون عليه الآن.

صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث (٣٩٧٨)

٧- قال ابن عمر: وقف النبي ﷺ على قليب بَدْر، فال: هل وجدتهم ما عد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول، فذُكر لعائشة فقالت: إنَّما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أنَّ الذي كنت أقول لهم هو الحقّ ثم قرأت: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾.

صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث (٣٩٨٠)

٨- أخبر عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ**

كُذِبُوا ﴾. قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة رضي الله عنها: بل كُذِّبوا - يعني بالتشديد - قلت: والله لقد استيقنوا أنّ قومهم كذّبوهم فما هو بالظن قالت: أجل - لعمري - لقد استيقنوا بذلك، فقلت لعلها: وظنوا أنهم قد كُذِبُوا - مخفَّفة - قالت: معاذَ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أَتْباع الرسل الذين آمنوا بهم، وصدَّقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممَّن كذَّبهم من قومهم وظنت الرسل أنَّ أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

صحيح البخاري، كتاب التفسير، حديث (٤٦٩٥)

هذه أحاديث أثبتت لنا تلك المقدرة العلمية لدى صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها، حتى صارت تناقش القضايا الشرعية، والمسائل العلمية بهذه الدِّراية والفهم، وحتى صارت مقصداً لبعض من تشتبه عليهم معاني بعض الآيات أو الأحاديث من الصحابة رضي الله عنهم.

وإني لأرى في شخصية (عائشة) مثالاً مشرقاً لشخصية المرأة المسلمة الواعية، التي تحمل من العلم والفقه والورع ما يحول بينها وبين الانخداع بأيَّة دعوة منحرفة مهما كان بريقها، والانسياق لأيِّ ناعقٍ مهما كان أثره.

إننا نعيش هنا مع ناقدةٍ نقدتْ بَعْض أقوال وأفعال كبار الصحابة رضي الله عنهم، مستخدمةً أرقى أنواع أساليب النقد الموضوعي البنَّاء الذي يعتمد على الدليل الشرعي الواضح من كتابٍ أو سنَّة.

فها هي ذي تصوِّب خطأ فهم كلٍّ من عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما في موضوع تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، موضِّحة جانب الصواب مستخدمةً الحجَّة الواضحة في ذلك، مضيفةً دليلاً آخر يتعلق بسببٍ يبين معنى تعذيب الميِّت ببكاء أهله، فهي تشير إلى أن الرسول ﷺ أوضح للناس مسألة قد تغيب عن أذهانهم، ألا وهي أنَّ المقياس في نجاة الميَّت أو عدم نجاته ليس متعلِّقاً ببكاء أهله عليه، فقد يبكي الأهل والأصدقاء على فقيدهم حزناً على فراقه، وهو مرهون بعمله السيِّئ في قبره، وقد أوضح ذلك حينما مرَّ - كما أخبرت عائشة - على بعض اليهود يبكون امرأة منهم ماتت، فقال: إنهم يبكون عليها، وإنها لتعذَّب في قبرها، وهذا قول من لا ينطق عن الهوى، وهنا يكون الأمرُ جليًّاً في الذهن، بعيداً عن توقُّع الجور حينما يعذَّب إنسان بذنب غيره، فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن حينما نقول: إن الميّت يعذَّب في قبره ببكاء أهله: ما ذنبه هو، ولماذا يعذَّب بفعل غيره؟

إنَّ توجيه هذا الأمر من قبل صاحبة الحرير الأخضر هو الذي يُبعد هذه الشبهة، وهي تؤكد ذلك بقولها: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وهذا الأسلوب النقدي الموضوعي نجده في بيانها لمعنى آية السعي بين الصفا والمروة، حيث صوَّبت خطأ فهم ابن اختها عروة ابن الزبير رضي الله عنهم جميعاً، ومن أجمل ما يشار إليه في هذا الموضوع أن عائشة استخدمت في بيان الصواب في موضوع الطواف بين الصفا والمروة، الدليل العلميَّ بذكر سبب نزول الآية، والدليل اللغويَّ الذي أشارت فيه إلى ما يستقيم به المعنى، وما ينسجم به الأسلوب مع دلالته اللغوية، كما استخدمت أسلوب الزَّجر لابن أختها لتؤكد له منذ البداية أنها على علم صحيح بهذا الموضوع.

كيف ذلك؟

قالت له أولاً:

بئس ما قلتَ يا بن أختي!

فهي هنا تلفت نظره إلى أنها على يقين مما تقول حتى يتوجَّه بذهنه كلِّه إلى قولها.

فلقد فهم هو من الآية أنها تعني أن مسألة السعي بين الصفا والمروة اختياريَّة، فلا حرج على من سعى ولا حرج على من لم يسع.

وهذا القول يخالف حكماً شرعياً واضحاً يجعل السعيَ بينهما ركناً من أركان الحج والعمرة.

ولعل هذا الزَّجر المباشر من صاحبة الحرير الأخضر إنما كان بسبب خطورة هذا الفهم الخاطئ.

ثم ماذا؟

دخلت به - بعد الزَّجر - إلى الحجة والبرهان مستخدمةً اللغة وأساليبها الصحيحة، وعائشة كما نعلم حجَّة في هذا المجال.

أخبرته أنه لو كان المراد عدم وجود حرج على من لا يطوف بينهما لكانت الآية: «لا جناح عليه ألاّ يطوَّف بهما» وما دامت الآية القرآنية قد جاءت بأسلوبٍ آخر وهو ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فإن هذا الأسلوب اللغوي ينفي ذلك الفهم الخاطئ لدى عروة ويردُّه.

وبعد هذا مباشرةً يأتي الدليل العلمي بذكر سبب النزول، فذكرت قصة الأنصار في الجاهلية وتحرّجهم من السعي بين الصفا والمروة، ولما جاء الإسلام يقي هذا التحرُّج في نفوسهم، وأخبروا رسول الله عليه الصلاة والسلام بذلك فنزلت الآية الكريمة لنفي ذلك الحرج، ولتأكيد السعي بينهما.

إن عائشة على يقين من علمها بهذا السبب، ولهذا كان أسلوبُها واضحاً في بيانه، ويؤكد هذا ما ورد في **صحيح البخاري في كتاب الحج حديث ١٦٤٨**، من أن عاصماً سأل أنس بن مالك: أكنتم تكرهون

السعي بين الصفا والمروة، قال: نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾.

أرأيتم - أيها الأحبة - كيف اكتملت جوانب النقد الموضوعي الهادف في هذا المسألة؟

حتى وعائشة تنتقد فعل أولئك الناس الذين طافوا بالبيت بعد صلاة الفجر ثم جلسوا إلى أحد الوعَّاظ يستمعون، ثم قاموا حين طلعت الشمس يصلُّون، فانتقدت صلاتهم في وقت الكراهية، إنما أخذت عليهم ذلك لأنها صاحبة علمٍ تعرف ما يجوز وما لا يجوز، فالحديث الصحيح يؤكد ذلك كما ورد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قوله: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها.

وحينما نقدت ما قاله عبدالله بن عمر في شأن مخاطبة الرسول ﷺ لقتلى قريش في قليب بدرٍ بعد الغزوة، أيَّدت ما ذهبت إليه بآية من كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

وهذا أسلوب العلماء الذين يحملون أمانة العلم ومسؤوليته.

أمَّا في موقفها من سؤال ابن أختها عروة بن الزبير عن الآية القرآنية الكريم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ فإنَّ الفهم والعلم والدراية باللغة وأساليبها، تتجلَّى واضحةً أمامنا

فتزيدنا ثقةً بعلم صاحبة الحرير الأخضر وفقهها، ورسوخ قدمها في المعرفة بأساليب لغة القرآن الكريم.

واسمحوا لي أن أترك التعليق على هذا الحديث لفضيلة الشيخ د/سعود بن عبدالله الفنيسان، حيث تناوله بالإيضاح في كتابه القيِّم «**مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير**» حينما عرض ما روي عنها من التفسير في سورة يوسف، فقد آثرتُ أن أُورد كلامه هنا لما فيه من إلمامٍ بأطراف هذا الموضوع، يقول:

قرأ ابن كثير ونافع وأبوعمر وابن عامر ﴿قد كُذِّبوا﴾، بضمِّ الكاف وتشديد الذَّال، والمعنى: تيقَّن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، ولم يصدقوهم فيما جاؤوا به، فالظن يعني اليقين، ويجوز أنْ يراد بالظن الشك، ويكون المعنى أن الرسل ظنت أن أصحابهم كذَّبوهم لما لحق بالمؤمنين من الضرر والأذى، ويؤيِّده ما رواه بن كثير في تفسيره عن عائشة أنها قالت: لحق الرسل البلاء والضرر حتى ظنوا أن المؤمنين بهم قد كذَّبوهم.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿قد كُذِبُوا﴾ بتخفيف الذَّال والمعنى: أن المرسَل إليهم ظنُّوا أنهم قد كُذِبوا فيما أخبرتهم به الرسل عن الله من الإيمان به وأمره ونهيه، فالظن يعني الشك أو اليقين ما دامت الضمائر تعود للمرسل إليهم وليست إلى الرسل، وهذا المعنى هو ما يدل عليه الحديث من إنكار عائشة للقراءة بالتخفيف.

والحاصل أن القراءتين بالتشديد والتخفيف ثابتتان، وهما من القراءات السبع، وما روي عن عائشة من الإنكار على ما قرأ بالتخفيف إنَّما هو لتفسير الآية حتى لا يُفهم أنَّ الشك لاحق بالرسل عليهم السلام، وإلا فقد روي عنها القراءة بالتخفيف أيضاً.

أرأيتم - أيها الأحبة - كيف فطنت صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها إلى هذا الفرق الدِّقيق بين القراءتين، فوجَّهت عروة إلى المعنى الصحيح المراد في هذه الآية الكريمة؟

إنه النقد الموضوعي في أرقى صوره.